منهج الحرّية

وآفاق التحرّر

منهج الحرّية
وآفاق التحرّر

آية الله العظمى المرجع الدّيني
السيّد صادق الحسيني الشيرازي
دام ظلّه الوارف

الناشر

مؤسسة الأنوار الثقافية العالمية
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، شجرة النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي، والفلك الجارية في اللجج الغامرة، يأمن من ركبها، ويغرق من تركها، المتقدّم لهم مارق، والمتأخّر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق، واللعن الدائم على أعدائهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

الحرّية من منظور إسلامي، وجوهر الحرّية في تعاليم الإسلام، والإسلام وجوهر الحرّية المعاصرة، والحرّية الفكرية والعلمية في المنظور الإسلامي، والحرّية ركيزة في ارتقاء المجتمع، ونعمة الحرّية وكيفية اغتنامها، والحرّية في الإسلام وطغاة العصر، وعالم الحرّية والانفتاح.

هذه العناوين وغيرها، اقتبست من فكر ورؤى سماحة آية الله العظمى، المرجع الديني الكبير المحقق، السيد صادق الحسيني الشيرازي – دام ظلّه الوارف – اقتبست من كتبه النافعة، ومن

محاضراته وتوجيهاتـه القيمة، نقدّمها للقارئ الكريم في كتابنا هذا، الذي يأتي تحت عنوان: (منهج الحرّية وآفاق التحرر).

القرّاء الكرام:

إنّ عنوان هذا الكتاب ومادته تم اقتطافهما من صفحات كتاب (القبسـات) وهو في حقيقته مجموعة مقالات تم نشـرها على موقع شـبكة النبأ المعلوماتية في مساحة زمنية متفرقة، واعتمد الكتّاب في مادتهـم الفكريـة على فكر سـماحة آية الله العظمـى المرجع الديني السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - وهو من إعداد مؤسّسة النبـأ للثقافة والإعـلام، وللأمانة وحفظ الحقّ الأدبي تم إعادة نشـر مقدّمة مؤسّسـة النبـأ للثقافة والإعـلام كاملةً، في جميـع مطبوعات الأنوار ذات العلاقة بهذا المصدر.

نسـأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل منا هذا العمل، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مؤسسة الأنوار الثقافية العالمية

٩/ ٧/ ١٤٣٨هـ

مقدمة مؤسّسة النبأ للثقافة والإعلام

تحتاج الأمم والشعوب إلى نهل الفكر السليم المعطاء لكي تتجاوز تحديات المعاصرة ومستجدات الحداثة وإشكاليات تداولية الأفكار والمفاهيم والنمو المتضخم في إنتاج الأزمات في عالم اليوم. هذه الحاجة هي أعمق من التوصيف وأبعد من الدلالة عليها؛ لأنّها تتحفّز إلى التجسيد عبر السعي إلى.. والتفاعل مع.. والاقتباس من.. ذلك الفكر المتمكّن من الامتداد مع تفاصيل الحياة الدقيقة والقادر على النهوض بها بشكل متوازن ومتناسق مع الحقّ والحقيقة، مع الدين والعلم، ومتناغم مع أهداف الأمة المشروعة في سبيل حياة أفضل.

ولكنه أيّ فكر؟!

إنّه فكر المرجع الديني الكبير آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - إنّه الفكر المضيء الصادر من مصباح القرآن والنبوة والإمامة، إنّه الفكر الممتدّ مع الأمة والفرد والمجتمع في آمالها وهمومها ومشاكلها وأزماتها وتطلعاتها وأوجاعها، إنّه الفكر الذي يغذّي الحياة بمناهج السموّ والتطور

والرفعة، إنّه الفكر الذي يسعى إلى بناء الذات وبناء المجتمع، إنّه الفكر الذي ينمّي ويعالج ويربّي ويرشد ويعلم ويثقّف، إنّه الفكر المنفتح على هموم الإنسان وأزمات المجتمع وآمال الأمة بلا نخبوية ولا انعزالية ولا فوقية ولا طبقية، إنّه الفكر السّامق في أطروحاته المتعايش لهموم الناس ومشاكلهم وإرهاصات حياتهم السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والتربوية.

وإلى ذلك الفكر المبدع المعطاء وردناه آنسين فيه حلولاً لأزماتنا، ومنهجاً لأعمالنا، وعلاجاً لأوجاعنا، وضمادة لجراحنا، ووسائل لتحقيق أهدافنا، فصدرنا عنه بهذه القبسات المضيئة والمثمرة التي ما أحوجنا إلى نورها وعطائها.

هي قبسات تنير دروب الحياة وترشد إلى مسالك الحقّ وترفد الإنسان والمجتمع برؤى لتطوره المستقبلي في ميادين الحياة وآفاق الفكر.

هي قبسات من مصدر امتزجت فيه ينابيع الحكمة بينابيع العلم وتجسّدت عبره تجربة إنسانية سامية قدّمت فيها الحكمة عصارة الحقّ، وقدّم فيها العلم خلاصة الحقيقة، وقدّمت فيها الإنسانية شذرات تجربتها في معارج السّمو، فكانت وتكون قراءة للباحث وأفقاً للمتأمّل ونهج بناء للفرد والمجتمع.

هي قبسات من فكر غذّاه الإسلام فأشرق بانتمائه، وسوّاه القرآن فتسامق باعتداله، ورسمت آفاقه النبوة فاتّسع في امتداده، وكانت تربته الإمامة فطابت منابته وثماره، وفوق سطور المرجعية

سارت كلماته ومفاهيمه فصدقت اعتداله، وبالرغم من اتّساع بحر الحياة المعاصرة فقد أحاطت بها سواحله، واليوم نحن في هذا الكتاب نتوقّف في بعض مرافئ ذلك الفكر العملاق الذي تعمق في تفاصيل الحياة اليومية للفرد والجماعات والمجتمع وتوسّع في امتداداتها بتفرّعاتها الدقيقة.

هذه القبسات المعطاء ليست خبط عشواء من فكر كلّه إبداع وسموٍّ، بل إنّها قبسات تحرّينا قدر الإمكان أن تعالج قضايا وهموم الفرد والأسرة والجماعة والمؤسسة والمجتمع، تحرّينا أن تكون مرشداً ومرجعاً للخطاب المتداول في بناء الذات وفي إدارة حلّ الأزمات وفي الالتزام الأخلاقي وفي بناء خطاب ووعي سياسي سليم ومسؤول.

إنّه خطاب موجّه للقائد السياسي والناشط الاجتماعي، للرجل وللمرأة، للشباب وللمربين. إنّ المنهج الذي اتبعناه في عرض هذه القبسات من فكر المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي هو كالآتي:

١- إنّ الإنسان هو حجر الزاوية في الرسالات السماوية وفي مناهجها في بناء المجتمع، وإنّ إصلاح الإنسان هو الطريق لإصلاح المجتمع سواء مثّل المجتمع بأصغر مؤسسة اجتماعية فيه وهي الأسرة أو باتّساعه الأكبر في الأمة تأسيساً على مقولات التشريع الإسلامي في القرآن والسنة ومرويات الأئمة عليهم السلام لذا كان الاهتمام كبيراً بجوانب بناء الإنسان بشكل سليم وصحيح

على المستوى الروحي والأخلاقي والذاتي والأسري والثقافي والسياسي، وبالمقابل كان هناك اهتمام بالبناء الذاتي للفرد باعتباره عضواً في مؤسّسة اجتماعية أو دينية أو سياسية أو ثقافية فكانت هناك محاور من القبسات اهتمّت ببناء القائد السياسي والمربّي ورجل الدين والمثقف المسؤول.

٢- كان هناك اهتمام كبير في التوجيه والإرشاد في مجموعة من المحاور، وبالمقابل فقد وجدنا أنّ من الضروري ألا نكتفي بالتوجيه والإرشاد كما في بعض مواضيع (إضاءات سياسية) بل قدّمنا قبسات مضيئة أيضاً من التحليل السليم وإثراء الرؤية من خلال نمذجة التحليل مع أحداث وهموم سياسية يعيشها الإنسان يومياً وتمارس ضغوطاً على واقعه وترمي بظلالها عليه.

٣- إنّ الإرشاد والتوجيه والنصيحة في قضايا مهمّة وخطيرة تمسّ حياة الناس تستدعي تحليلاً وإضاءات للأحداث والمشاكل والأزمات في أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية، ولكي نضع أسساً صحيحة للتعامل المستقبلي مع مستحدثات العصر ومشاكله لا بُدّ وأن ننطلق من مقدّمات صحيحة وسليمة للتقييم والتقويم، لذا كان لا بُدّ وأن نقدّم محاور تهتمّ بمفاهيم تأسيسية خصوصاً في العلاقة مع الله سبحانه، وفي التطوير الذاتي وفي بناء المجتمع وفي مجالات العلاقات الاجتماعية والثقافة والحرّية والنظم السياسية ومكوناتها.

٤- اهتمّت محاور القبسات الفكرية من فكر المرجع الشيرازي بتقديم قضايا محورية في الحياة المعاصرة، تلك القضايا التي تعالج

إشكاليات بناء الإنسان والعلاقات الاجتماعية ودور المرأة وحريتها ووظيفة الثقافة وأهميتها ودور الشباب ومفهوم الحرّية في الأبعاد المختلفة وأهمية القيادة ونمذجتها في الواقع المعاصر.

٥- الاهتمام بتقديم الشعائر الحسينية وتنوع أدوارها وفاعلية تأثيراتها على جميع شرائح المجتمع وفي جميع المستويات وتقديمها عبر عدة جوانب من الحياة السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية.

٦- إنّ هذه القبسات هي مقالات نشرت في (شبكة النبأ المعلوماتية) على مساحة من الزمن وكانت تعبيراً عمّا يشغل بال القراء وما يتساءلون حوله أو ما يرغبون بمعرفة كيفية التعامل أو التفاعل معه، لذا فإنّ انتماء هذه القبسات للنسيج الفكري والعملي المعاش هو انتماء قارّ وعميق بل وصادر عنه.

وهذه الباقة من القبسات من فكر المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي هي بداية ندعو الله عزّ وجلّ أن يوفّقنا في ديمومتها في أجزاء أخرى لإتمام الفائدة ولاكتمال الرؤية. وإنّها لبداية متواضعة ومحاولة بكْر في رحلة الألف ميل، فلعلَّنا بها نخطو الخطوة الأولى ولعلَّنا بها نستثير تفكير الباحثين لتأملها وإثرائها حتى تكتمل جميع جوانبها لنقدّم ما فيه الفائدة للإنسان والمجتمع والأمة وهذه هي الغاية النهائية من ارتيادنا لهذا الفكر المعطاء.

والله الموفّق لما فيه الخير.

جوهر الحرّية في تعاليم الإسلام

الحرّية هي مطلب الإنسان في كلّ زمان ومكان، وهي الهدف الأسمى لكلّ الأفكار العظيمة التي قدّمها المصلحون والمفكرون على مذبح الحرّية الذي شهد تضحيات عظيمة دوّنها التأريخ بأحرف من ذهب.

والحرّية شكلاً وجوهراً هي مبدأ نظري بحاجة إلى التطبيق على الأرض، فأنْ تدّعي الحرّية والتحرّر وتدعو إلى ذلك شيء، وأنْ تطبّق هذه الأقوال والمضامين على أرض الواقع شيء آخر.

الدين الإسلامي رفع مبدأ الحرّية شعاراً عظيماً في تعاليمه وطبّق ذلك تطبيقاً عمليًّا لا يمكن لأحدٍ إغفاله أو نكرانه، في هذا المجال يقول سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي – دام ظلّه – في كتابه الموسوم بـ(الحرّية في الإسلام) عن حرية اختيار الدين في الإسلام: «من أصول الإسلام المسلّمة والمؤكّدة مسألة حرية اختيار الدين، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾. بل ليكن معلوماً – قبل كلّ شيء – أنّ الإسلام وحده هو دين الحرّية، فحتّى المدارس والمبادئ الأخرى التي ظهرت منذ

قرون وما زالت ترفع شعار الحرّية لا واقع للحرّية فيها سوى الاسم. أمّا الإسلام فهو دين الحريات مبدأً وشعاراً، وقولاً وعملاً، وهذا موضوع طويل يتطلّب من الباحث أن يطالع الفقه الإسلامي بتعمّق -من أوّله إلى آخره- لكي يعرف كيف أنّ الإسلام التزم بمبدأ ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ في مختلف مجالات الحياة».

ويورد المرجع الشيرازي وقائع تدعم أقواله وآراءه يستمدّها من سيرة رسول الله ﷺ حيث يقول في كتابه القيِّم هذا: «لقد شنّ أهل مكّة حرباً ظالمة على رسول الله ﷺ قلّ نظيرها في التاريخ، فلقد عُرف ﷺ بينهم بالصدق والأمانة حتى لقّبوه بالصادق الأمين، ولكنهم مع ذلك حاربوه - إلاّ قليلاً منهم - عسكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا ونفسيًّا، حتى بلغ الأمر بهم أنّهم كانوا لا يردّون تحيّته إذا حيّاهم[(١)]. فكان الشخص منهم - وهو مشرك - يخشى إذا ردّ تحيّة النبي ﷺ أن يراه الرائي من المشركين فلا يتبايعون معه بعد ذلك

(١) لا شكّ أنّ النبيّ ﷺ لم يكن يحيّيهم بتحية الإسلام وهي: السلام عليكم، بل كان يحييهم بأنواع التحيات الأخرى؛ فهنا مسألة، وهي أنّه يجوز للمسلم أن يحيّي الكفّار بمختلف التحيات باستثناء تحيّة الإسلام، ولا يجوز له أن يقولها إلا لمسلم، بل أن يقول له: أنعِم صباحاً أو أنعِم مساءً، أهلاً وسهلاً، تحية طيّبة وما أشبه؛ لأنّ كلمة «السلام عليكم» مختصّة بالإسلام والمسلمين دون غيرهم، ووردت فيها أحاديث عن النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم الصلاة والسلام، تؤكّد أنّ رسول الله ﷺ كان يحيّي المشركين بمختلف التحيات إلاّ كلمة «السلام عليكم»، فلقد وُضعت للمسلمين خاصة. فإذا حيّا مسلم مسلماً قال له: «السلام عليكم» والحديث المعروف الذي لا بدّ وأنّ كثيراً منكم سمعه وهو «تحية الإسلام السلام» يعني أنّ هذه التحيّة خاصّة بالإسلام. (عنه حفظه الله).

ولا يزوّجونه ولا يتزوّجون منه.

وطردوا رسول الله ﷺ ومَن معه إلى أطراف مكّة، وحاصروهم في شعب أبي طالب وفرضوا العزلة عليهم، فكان لا يحقّ لهم دخول مكّة، وإذا دخلها أحدهم فدمه يهدر، واستمرّت الحالة هذه مدّة ثلاث سنين، وبعدما هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة شنّ عليه مشركو مكّة عشرات الحروب ساندهم فيها اليهود والمنافقون، ودامت الحالة عشرين سنة بمختلف أساليب الحروب حتى أذن الله له بالفتح[1] وجاء ﷺ مكّة فاتحاً، وأصبحت مكّة في قبضته وتحت سلطته.

ورغم كلّ ما فعله المشركون من أهل مكّة مع رسول الله ﷺ إلاّ أنّ التاريخ لم يحدّثنا أنّ النبي أجبر ولو شخصاً واحداً على الإسلام، ولو أنّه أراد أن يجبر أهل مكّة على الإسلام لأسلموا كلّهم تحت وطأة السيف، لكنّه لم يفعل ذلك ولم يجبر أحداً على الإسلام. أمّا دعوى إسلام أبي سفيان فكان بتحريض وتخويف من العباس بن عبد المطلب (عمّ النبي) وليس من النبي نفسه، فالعباس هو الذي طلب من أبي سفيان أن يُسلم حفاظاً على دمه لئلا يقتله النبي ﷺ وكلام العباس ليس حجّة ولا تشريعاً، بل كان من عند نفسه.

ولو أنّ أبا سفيان لم يسلم لما أجبره رسول الله على الإسلام،

(١) كلّ تلك الوقائع مسطورة في كتب التاريخ والسير. انظر على سبيل المثال: الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٣٢.

فكثيرون من أمثال أبي سفيان كانوا موجودين في مكّة ولم يقتل النبيّ ﷺ أحداً منهم بسبب عدم إسلامه، ولا أجبر أحداً على الإسلام، بل تركهم على دينهم مع أنّه باطل وخرافي لكيلا يسلبهم حرية الفكر والدين.

هكذا روى التاريخ عن سلوك نبينا: يحاربه قومه مع ما يعرفونه من صدقه وأمانته ونبله وكرم أخلاقه، بمختلف أنواع الحروب القاسية ويطردونه من موطنه ومسقط رأسه، ثم يتركهم أحراراً وما يختارون من دين وطريقة حياة؟ لقد كان رسول الله ﷺ يهديهم وينصحهم ويوضّح لهم طريق الرشد ويميّزه عن طريق الغيّ ثم يترك الاختيار لهم ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(١)، ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾(٢)، ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾(٣)، ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾(٤). هذا هو أسلوب الإسلام، لا ضغط ولا إكراه فيه. وهكذا الحال في سيرة رسول الله مع اليهود والنصارى.

فلقد ردّ ﷺ عشرات الحروب والاعتداءات التي شنّها أهل الكتاب دون أن يجبر أحداً منهم على الإسلام. لم يسجّل التاريخ ولو حالة واحدة يكون فيها رسول الله قد أجبر ذمياً على اعتناق الإسلام، والتاريخ حافل بسيرة النبي المصطفى وسجّل وحفظ

---

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) البلد: ١٠.
(٤) الإنسان: ٣.

الدقائق عن حياته، فالعلاّمة المجلسي رحمه الله وحده خصّص في موسوعته (بحار الأنوار) عشرة مجلّدات الواحد منها في أربعمئة صفحة، أي ما مجموعه أربعة آلاف صفحة أو أكثر كلّها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحروبه وأخلاقه وسيرته مع المسلمين ومع المشركين وأهل الكتاب. لا تجدون فيها موقفاً واحداً أجبر فيه رسول الله نصرانياً أو يهودياً على اعتناق الإسلام، بل تجدون أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان له صديق نصراني أو جار يهودي دون أن يجبره على اعتناق الإسلام مع أنّه كان الحاكم الأعلى في الجزيرة العربية وكان بيده السيف والمال والقوّة الكافية).

هذه بعض الوقائع التي تشكلت منها سيرة رسولنا الأكرم والتي تدعم دعوة الدين الإسلامي إلى حرية الاختيار الديني والعقائدي، وهي دليل قاطع على أنّ الإسلام يمتلك فضاءات واسعة للحرّية قولاً وتطبيقاً، ويذكر المرجع الشيرازي في كتابه هذا جانباً من سيرة أمير المؤمنين – سلام الله عليه – كدلائل قاطعة على الجانب التطبيقي للحرّية، فيقول:

«ولو انتقلنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل بيته – سلام الله عليهم – لرأينا الحالة نفسها، فها هو الإمام أمير المؤمنين قد كان مبتلىً بأشخاص ذوي نفسيات وضيعة تردّ عليه وتقطع كلامه وتجادله بالباطل بل حتى تتطاول عليه، وهو مع ذلك لا يأمر بقتلهم وسجنهم ونحو ذلك، وهو الحاكم الأعلى الذي بايعته الأمّة قاطبة ناهيك عن كونه مُنَصّباً من قِبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبأمر من العليّ

القدير، بل كان يجيبهم ويترك لهم حريّة العقيدة ما لم يتآمروا ويلجأوا إلى استعمال القوّة والسيف.

عاش في عصر الإمام شخص يُسمّى ابن الكوّا، وكان مشاغباً وذا مشاكل ومتاعب، يردّ على أمير المؤمنين - سلام الله عليه - ويناقشه دائماً، حتى والإمام على المنبر، ومع ذلك تركه الإمام وشأنه يعيش في المجتمع دون أن يفرض عليه شيئاً[١].

وهناك جرثومة أخرى ومنافق آخر يُدعى عمرو بن حريث، من طراز معاوية وأبيه، ومهما يُقال فيه من عيوب النفس ودناءة الخلق فقليل بحقّه، كان ممّن يحضر المسجد ويستمع إلى خطب أمير المؤمنين، ثم يقطع حديثه متهكّماً. وإذا أخبر أمير المؤمنين عن أمور غير ظاهرة - أي غيبيّة - ترك ابن حريث أعماله وجرى خلف ما أخبر به أمير المؤمنين - سلام الله عليه - يزعم أنّه يريد أن يكشف للناس كذب أبي تراب! وظلّت هذه الحسرة في نفس ابن حريث تنغّص عليه حياته حتى ذهب إلى قبره همّاً ونكداً دون أن يفلح في كشف ولو كذبة - حسبما يزعم - لأبي تراب، وكأنه قد غفل - حاله حال المنافقين - أنّه لا يتردّد على لسان أبي تراب سوى الصدق والواقع. عاش هذا المنافق في ظلّ عليّ - سلام الله عليه - وبعده، والإمام لم يصنع معه أيّ شيء، ولم يقل له يوماً تخلّ عمّا أنت عليه وإلاّ ضربت عنقك! لأنّه إمام الإسلام، دين حرية الفكر والعقيدة.

---

(١) أفرد الشيخ الطبرسي عنواناً مستقلاً في مسائله في كتاب الاحتجاج: ١ / ٣٨٤ - ٣٨٩ فراجع.

أجل، إنّ من عرف الحقّ ولم يترك الباطل فإنّ مصيره يوم القيامة إلى جهنّم وبئس المصير، أمّا في الدنيا فـ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ ليتمّ الامتحان ويُعرف الطالح من الصالح، ويُميّز الخبيث من الطيّب. فإنّ ابن حريث هذا امتدّ به العمر حتى كان من الشهود ضدّ ميثم التمّار - رضوان الله عليه - حينما أراد الطغاة الطغام من بني أمية قتله، فقال في حقّه - ليدلي بشهادته ضدّه لكونه من أصحاب عليّ الحقّ ومواليه -: «هذا الكذّاب مولى الكذّاب» - يعني الإمام عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه مولى الصادقين وإمام المتّقين -(١).

أرأيت نفسية هذا المنافق؟ إنّ رجلاً مثل هذا عاش مع أمير المؤمنين ثلاثين سنة وكان سلام الله عليه رئيساً وحاكماً بيده القوّة، ومع ذلك لم ينلْ منه، فهل يوجد في تاريخ العالَم رئيس كعليّ؟ وهل رأيتم سماحة كسماحة الإسلام؟ وهل رأيتم حرية كقوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾؟.

عن ابن عباس قال: مرّ أمير المؤمنين - سلام الله عليه - بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال: يا حسن، أسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، يصلّون الخمس ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين سلام الله عليه: «قد كان

---

(١) انظر: اختيار معرفة الرجال للطوسي: ١ / ٢٩٦ رقم ١٤٠ ترجمة ميثم، ففيه ما يكفي لتعريف حال ابن حريث.

مـا رأيت فما منعك أن تعيـن علينا عدوّنا؟» فقـال: والله لأصدقنّك يـا أميـر المؤمنيـن، لقد خرجت فـي أوّل يـوم فاغتسـلتُ وتحنّطتُ وصببتُ عليَّ سلاحي، وأنا لا أشك في أنّ التخلّف عن أمّ المؤمنين عائشـة هو الكفر، فلمّا انتهيت إلى موضع من الخريبة ناداني منادٍ: يا حسن، إلى أين؟ ارجع فإنّ القاتل والمقتول في النار.

فرجعـت ذعراً وجلسـت في بيتـي، فلمّا كان في اليـوم الثاني لم أشـكّ أن التخلّـف عن أمّ المؤمنين عائشـة هو الكفـر، فتحنّطتُ وصببتُ عليَّ سـلاحي وخرجت إلى القتال حتى انتهيت إلى موضع مـن الخريبـة فناداني منادٍ مـن خلفي: يا حسـن، إلى أين؟ مـرّة بعد أخرى، فإنّ القاتل والمقتول في النار.

قـال علـي سـلام اللـه عليـه: «أصدّقـك، أفتـدري مَـن ذلـك المنادي؟» قال: لا.

قال سـلام الله عليه: «ذلك أخوك إبليس، وصدقك إنّ القاتل والمقتول منهم في النار».

فقال الحسـن البصري: الآن عرفـتُ يا أمير المؤمنين أنّ القوم هلكى»[١].

حقّـاً هل يجـرؤ أحد مـن الرعية أن يكلّم رئيسـاً بهـذا الكلام -والإمـام مـع ذلك يلاطفه ويحـاوره- حتى في عصرنـا هذا، حيث يمضي على صدر الإسلام أربعة عشر قرناً، وتطوّر العالَم حتى صار

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٥٠.

يسمّى عصرنا بعصر الحرّيات؟ لقد قتل وشرّد «لينين» - رئيس جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وأمين سرّ الحزب الشيوعي السوفيتي - وحده في عصر الحرّية والتقدّم خمسة ملايين إنسان من أجل تطبيق مادّة قانونية واحدة من قانون المزارع الجماعية في الاتّحاد السوفياتي السابق. وفي العراق - الذي حكمه أمير المؤمنين بحرّية بلا نظير - كان أحد الرؤساء يوماً ما يخطب فانبرى أحد المواطنين ليردّ عليه ويناقشه، فقام الجلاوزة باعتقاله وسجنه وتعذيبه وقتله؛ لأنّه قال كلمة ينتقد فيها رئيساً في القرن العشرين. وحدثت قصّة شبيهة لهذه القصّة في بلد آخر -كما طالعتنا الصحف حينها - وحلّ به المصير نفسه، كلّ ذلك ونحن فيما يُسمّى بعصر الحريات، فهل هذه هي الحرّية حقّاً أم الحرّية الموجودة في ظلّ الإسلام؟.

لقد أُقصي الإمام أمير المؤمنين - سلام الله عليه - خمساً وعشرين سنة ثم توجّهت إليه الأمّة وتزاحمت على بابه للبيعة حتى لقد وطئ الحسنان[1]. ومع ذلك ذكر المؤرخون - سنّة وشيعة - أنّ الإمام بعدما بويع، ارتقى المنبر في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وكان المسجد مكتظّاً بالناس الذين حضروا لاستماع أوّل خطبة لابن عمّ رسول الله ووصيّه وخليفته الحقيقي الذي أُبعد عن قيادة المسلمين خمساً وعشرين سنة، بعد أن آل إليه الحكم الظاهري، ثم أمر جماعة

(١) نهج البلاغة: ٤٨، الخطبة الشقشقية. الحسنان - بسكون السين - الإبهامان من القدمين.

من أصحابه على رأسهم ابنه الإمام الحسن - سلام الله عليه - أن يذهبوا إلى الكوفة وينظروا هل فيها مَن لا يرضى بخلافته. فقال الناس بأجمعهم: رضينا بأمير المؤمنين ونطيع أمره ولا نتخلّف عن دعوته، والله لو لم يستنصرنا لنصرناه، سمعاً وطاعةً»[(١)].

بل حتى طلحة والزبير لم يتخلّفا عن بيعة أمير المؤمنين -سلام الله عليه- عندما انعقدت له، ولكنهما نكثا بعد ذلك، ولم يعترض أيّ أحد في هذا الأمر ولو حصل لما عاقبه الإمام بالقتل أو السجن أو الضرب ولا قال له شيئاً من شأنه أن يهينه أو ينال منه، فهل رأيتم أو سمعتم مثل هذا في عصر الديمقراطية الحديثة؟ والتي تعني -من جملة ما تعنيه- حكم الأكثرية، فلو حصل شخص ما على واحد وخمسين في المئة من الأصوات فهذا يخوّله لأن يصبح رئيساً للبلاد - وهذا يعدّ من أكبر أخطاء الديمقراطية، وبحثه موكول إلى محلّه - أمّا الإمام علي فقد بايعته الأكثرية المطلقة من الناس ومع ذلك يصعد المنبر ليبحث إن كان هناك معارض له أم لا، وليبحث عن سبب معارضته له، فهل تجدون لهذا نظيراً في التاريخ؟.

لقد كتب محبّو «صلاح الدين الأيوبي» أنّه قتل قرابة مليون إنسان - في عصر كان سلاحه السيف - ليس لشيء إلاّ لأنّهم يختلفون معه في الرأي. فأين هذا من سيرة النبي ﷺ الذي حاربه قومه عشرين سنة وأخرجوه من داره، ولكنّه عندما عاد إليهم ظافراً بنصر الله وعزّته وقدرته لم يجبر أحداً منهم على اتّباع دينه، بل قال:

---

(١) راجع: الأمالي للطوسي: ٣٢٥ - ٣٣١، ح٢٣.

«مَـن أغلق بابه فهو آمن، ومَن ألقى سـلاحه فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[١] ولم يقل مَن أسلم وشهد الشهادتين فهو آمن، مـع أنّ مهمّته صلى الله عليه وآله وسلم هي تبليغ الشـهادتين؛ لأنّ حرية الرأي في نظام الله وقانون الإسـلام لا تقلّ تقديساً عن الشهادتين، فالإسلام يسعى لجعـل الناس أحـراراً. قال تعالى: ﴿**يَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُـمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[٢].

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٢٩٥ تفسير سورة الحجرات.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

الحرّية من منظور إسلامي

قد يبدو الحديث عن الحرّية كمفهوم من بديهيات الكلام؛ نظراً لكثرة ما تردّد عن هذا المفهوم من آراء وتفسيرات في بحوث ودراسات ومؤلّفات المصلحين والمفكرين والفلاسفة القدماء والمعاصرين وغيرهم، ولم يُخطئ بعض الفلاسفة حين قالوا إنّ بعض المفاهيم (ومن بينها الحرّية) تتجدّد وتتحدّث مع توالي الأعوام والحقب التأريخية المتوالية، غير أنّ جوهرها يبقى ثابتاً ما بقيت الحياة قائمة، ولعلّ الإشكالية تكمن في تلك المقارنات المتعجّلة التي يعقدها البعض بين نظرة الإسلام للحرية وتعامله معها وبين نظرة الآخرين لها ومن بينهم الغرب بطبيعة الحال.

فثمّة من يرى أنّ الغرب هم أهل الحرّية، وهم من فتح الأبواب والسبل لترسيخها في حين - كما يرى هذا البعض - أنّ الإسلام ينطوي على كثير من المحرمات والنواهي التي تحدّ من الحرّية الفردية أو الجمعية، لكن من يطلق مثل هذه الأقاويل لم يكلّف نفسه عناء الاطّلاع على مبادئ الإسلام في هذا الصدّد ولا يفهم نظرته إلى جوهر الحرّية الإنسانية وليس إلى شكلها، ولعلّ جوهر نظرة

الإسـلام إلى الحرّيـة يكمن في هذه الجملة الواضحـة النقية التي لا تقبل التحريف أو التأويل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

إنّ نظرة الإسـلام للحريـة تبدأ ولا تنتهي بهـذه الآية الكريمة، ولقـد أسـهب سـماحة المرجـع الدينـي السـيد صـادق الحسـيني الشـيرازي في تبيان مفهوم الحرّيـة وتوضيحه والخوض في جوهره لكـي يضع النقاط على الحروف ويوضّح ما تعنيه الحرّية للإسـلام، إذ جاء في كتاب سماحته (الحرّية في الإسلام) حول هذا الموضوع: «يقول الإسـلام: اعمل ما تشاء، فلك حرية العمل شريطة أن لا تضرّ غيـرك، فإنّه «لا ضرر ولا ضرار في الإسـلام»[1]. والإسـلام يضرب بشـدّة على يد الظالم ومَن يريد إلحاق الضرر بالآخرين، وبعد ذلك فأنـت حرّ في كلّ أمورك، في ذهابك ومجيئك وسـفرك وعلاقاتك، فـلا ضغط ولا جبر ولا إكـراه ولا كبت للحرية في الإسـلام، ولكن ثمـة توجيهات وإرشـادات تبيّن لك السـلوك الأحسـن، تقول: هذا صحيح وهذا مستحبّ وهذا مفضّل وهذا مكروه».

ووفقـاً لهـذا الطرح، فإنّ الإنسـان غير مقيّـد بجانب فكري أو سـلوكي محـدّد كما يرى الإسـلام، لكنّ الأمر الهـامّ الذي لا يمكن إغفاله هنا، هو التزام الإنسـان نفسـه بعدم التجاوز على الآخرين أو إحداث الضرر المعنوي أو المادي لهم، هذا هو شرط الإسلام على مـن يريـد أن يمارس حريتـه حتى في اختيـاره للدين، فحيـن نتمعّن بجملـة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فسـوف نعرف تمامـاً ما تعنيه وما تريد

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٠٨ باب ١٣ ح ٤.

أن يفعله المسلم أو غيره، فهو حرّ إلاّ فيما يتعلق بدرجة الضرر التي قد تسببها حريته للآخرين، وقد ورد في هذا الصدّد بكتاب سماحة المرجع الديني الشيرازي (الحرّية في الإسلام):

«من أصول الإسلام المسلّمة والمؤكّدة مسألة حرية اختيار الدين، قال تعالى: لا إكراه في الدين. بل ليكن معلوماً - قبل كلّ شيء - أنّ الإسلام وحده هو دين الحرّية، فحتّى المدارس والمبادئ الأخرى التي ظهرت منذ قرون وما زالت ترفع شعار الحرّية لا واقع للحرية فيها سوى الاسم، أمّا الإسلام فهو دين الحريات مبدأً وشعاراً، وقولاً وعملاً، وهذا موضوع طويل يتطلّب من الباحث أن يطالع الفقه الإسلامي بتعمّق - من أوّله إلى آخره - لكي يعرف كيف أنّ الإسلام التزم بمبدأ ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ في مختلف مجالات الحياة».

لذلك من الأمور البديهية أنْ يطّلع الباحث على موضوع البحث الذي يناقشه، فلا يجوز أن يلصق هذه التهمة أو تلك بهذا المبدأ أو الدين أو الرأي قبل أن يطّلع على رؤاه ومبادئه ونظرته إلى الحرّية على سبيل المثال، لذا نرى أنّ النظرة القاصرة التي تتهم الإسلام بتحديد الحرّية ووضع العراقيل والنواهي بوجهها ما هي إلاّ تهم لا تصمد أمام الوقائع التي تحدث على الأرض، حيث لا محدّدات للحرية في الإسلام إلاّ في حالات الضرر للنفس أو الضرر بالآخر، كما نقرأ ذلك في كتاب (الحرّية في الإسلام): «هناك تهمة وجّهها بعض المستشرقين إلى الإسلام ويُردّدها بعض الشباب

الذين لا يعرفون الإسـلام حقّ معرفته، فهم يقولون: إنّ الإسلام كلّه محرّمات وقيود ونواهٍ، ونحن نقول لهم: بالعكس تماماً، فإنّ الحرّية الموجودة في الإسلام لا يوجد لها نظير في أيّ مكان.

خـذوا أكثر بلـدان العالَم ادّعـاءً للحريـة كفرنسـا والولايات المتّحـدة مثلاً، ترى القيود الكثيرة للسـفر منهـا وإليها، وفي جوانب كثيـرة أخـرى، فهـذه القيود موجودة فـي كلّ دول العالَـم وإن كانت في بلداننا أشـدّ، أمّا الإسـلام فـلا يوجد فيه مثل هـذا، فلا يقول لك الإسـلام: أين تسـكن؟ وأين تذهب؟ وكيف تذهب؟ ومتى تذهب؟ بـل يقول لـك: إنّ الله خلقك وهـو الذي أعطاك الفكـر والعقل فلا تكـن عبد غيرك، ولا يجب أن تخبر الدولة عن خروجك ودخولك، وإقامتك ورحيلك، وما تستورد وما تصدّر - غير المحرّمات - لكنّ الإسـلام يضع لك التوجيهات ويقول لـك إن التزمت بها تفلح وإلاّ تخسر».

إنّ مثـل هذه التهم الجاهزة لـم تعد تنطلي على المتابع اللبيب الـذي يبحـث عـن الجوهر قبـل الشـكل والذي يسـتند فـي إطلاق أحكامـه علـى الدلائـل والقرائن الواضحة، ويسـتند إلـى ما يحدث علـى أرض الواقـع، فالقـول بـأنّ الإسـلام ينطـوي علـى الكثير من المحرمات والنواهي سـيظلّ ناقصاً وغير مقبول من دون البحث عن ماهيـة هذه المحرمات ونوعها ودرجـة إضرارها بالآخرين، وعندما يتبيّن للباحث أهمية الالتزام بهذه المحرمات وعدم تجاوزها سيفهم أنّ الحرّية في الإسلام هي جوهر الصلاح والنجاح والتقدّم البشري،

وكمثـال حين حرّم الإسـلام الزنا فإنّ أضراره معروفـة للجميع وقد اكتشـفها الغرب بنفسـه وعانى منها كثيراً، لذا فـإنّ تحريم الزنا ليس تحديـداً لحرية الإنسـان بـل حفاظاً عليـه بالدرجة الأولـى، وهكذا ينطبق هذا المثال على الأمور والجوانب الأخرى التي تتعلق بالحرّية كمفهوم وسلوك أيضاً.

الإسلام وجوهر الحرّية المعاصرة

عندما نشط الفكر الإنساني في مراحله الأولى، بدأ الإنسان ينتقل من حالة أدنى في العيش إلى حالة أفضل، ثم أصبحت اللغة بديلاً للإشارات، وانبثق دور التدوين وتم اكتشاف الكتابة لتبدأ البشرية قفزاتها المتسارعة صوب السموّ والتنامي المضطرد إلى ما هو أفضل وأرقى من الحالات التي تهمّ الإنسان على الصّعيدين الفكري والعملي، ومنذ ذلك الوقت صعوداً إلى الراهن المُعاش، يؤكّد المصلحون والفلاسفة وأصحاب الفكر الحرّ على دور الحرّية الخلاق فيما أنجزه الإنسان عبر مسيرته الطويلة والشاقة من مكتسبات كانت لا تخطر على بال أحد إلاّ في ساحة الخيال فقط.

ولعلّنا لا نأتي بجديد حين نقول بأنّ الإسلام - وهو خاتم الأديان السماوية - ارتكز على نحو كبير ولافت على جوهر الحرّية واعتمدها أساساً متيناً في مبادئه وتعاليمه وأكّد أنّها السبيل الأصوب والأقرب إلى التحضّر والرقي وسلامة الإنسان وتطوره وتشذيب نوازعه المغرضة في آنٍ، ولعلّنا نضع في مقدمة ما دعا إليه الإسلام وارتكز عليه في طروحاته هو مجال الحرّية الجوهرية عبر الآية

الكريمة التي تعلن على رؤوس الملأ مبدأ: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.

إنّ هذه الآية القرآنية الكريمة حين تشخص أمام عيون الإنسان (كائناً من كان) فهي وحدها تعدّ ركيزة عظيمة تدلّ على أنّ الدين الإسلامي الحنيف قدّم للبشرية جمعاء حلاً مركزياً لشؤونها يمكنها اعتماده في معالجة وتذليل مشاكلها الشمولية التي تتعلق بالسياسة والفكر والاقتصاد والطب والعلوم الإنسانية كافة؛ لأنّ هذه الحلول والمبادئ ركّزت على جوهر الحرّية وجعلته أساساً راسخاً وهاماً لمقوّمات التطور البشري.

ولعلّ في ذلك ميزة للإسلام كما نقرأ هذا في الكتاب القيّم الموسوم بـ(الحرّية في الإسلام) لسماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي إذ يقول: «من أصول الإسلام المسلّمة والمؤكّدة مسألة حرية اختيار الدين، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، بل ليكن معلوماً - قبل كلّ شيء - أنّ الإسلام وحده هو دين الحرّية، فحتّى المدارس والمبادئ الأخرى التي ظهرت منذ قرون وما زالت ترفع شعار الحرّية لا واقع للحرية فيها سوى الاسم».

ولذلك حين نقول إنّ الإسلام هو دين الحرّية شكلاً وجوهراً، فإنّ الوقائع والأفكار والتوجّهات تشير إلى ذلك بوضوح، ولعلّنا نجد في سِيَرِ أنبيائنا وأئمتنا عليهم السلام وكلّ الأفذاذ العظماء من الشخصيات الإسلامية الخالدة نماذج للحرية هي قمة في حضورها ووهجها الفكري الإنساني الخلاق، ولعلّ الاشتراط الأروع والأجمل

والأصحّ في ممارستنا للحرية الشخصية أو الفكرية أو غيرها، هو شرط عدم إلحاق الضرر بالآخرين أو التجاوز على حقوقهم، وهذا هو ما يراه الدين الإسلامي ويؤكّده بقوة، حيث يقول سماحة المرجع الشيرازي في كتابه نفسه بهذا الصدد: «يقول الإسلام: اعمل ما تشاء، فلك حرية العمل شريطة أن لا تضرّ غيرك، فإنّه «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» والإسلام يضرب بشدّة على يد الظالم ومَن يريد إلحاق الضرر بالآخرين، وبعد ذلك فأنت حرّ في كلّ أمورك، في ذهابك ومجيئك وسفرك وعلاقاتك، فلا ضغط ولا جبر ولا إكراه ولا كبت للحرية في الإسلام».

فما أروعها من سمة، وما أجلّه من شرط إنساني يتجلّى فيه الصواب والمسار الفطري، إذ حتى السجية التي تسوق سرائر الإنسان فهي توجّهه بهذا الاتجاه الفطري الراكز في أعماقه، بمعنى أنّ الإنسان بفطرته وخصاله الأصيلة يرفض التجاوز والاعتداء والإضرار بالآخرين رفضاً قاطعاً، وجاءت حرية الإسلام لتؤكّد هذا المبدأ الذي يفتح آفاق الحرّية على مصاريعها لكنّه يحمي الآخرين من الضرر الذي قد يلحقه بهم المتجاوزون في الفكر أو التطبيق، في حين كانت الأديان الأخرى تقتل لمجرّد إبداء الرأي كما حدث ذلك في أوربا (القرون الوسطى) حيث نقرأ ذلك في كتاب سماحة المرجع الشيرازي الذي يقول فيه: «فلنقرأ عن الإسلام، ولنقرأ عن غيره أيضاً ثم نقارن بينهما، ففي القرون الوسطى كان العالِم في الغرب يُقتل لمجرّد إبداء رأيه في قضية ما وإن كانت علمية محضة

لا علاقة لها بالدين وتشريعاته».

لهـذا سـيبقى التركيز علـى جوهـر الحرّية قائمـاً، بمعنـى أنّنا سـنظلّ باحثين عـن الحرّية ومطالبيـن بها؛ لكونها حجـر الزاوية في الفعـل الإبداعي البشـري على وجـه العموم، وهذا هو مـا يدفع إليه الإسلام شريطة أن يحذر المفكر أو الفاعل وهو يمارس حريته على ألا يضرّ بالآخرين وهو مطلب إنسـاني جوهـري وكبير لا غبار عليه أبداً، وهو ما دأب عليه المصلحون والمفكّرون والعلماء المسلمون وهم يضعون أفكارهم الجليلة في خدمة المجتمع الإنساني عموماً.

الحرّية الفكرية والعملية في المنظور الإسلامي

من بداهة القول أن يؤكّد العلماء والمعنيّون على أن الحرّية هي جوهر الإسلام وذلك من خلال الإشارات اللفظية والعملية التي قدّمها لنا القرآن الكريم في الكثير من آياته الكريمة، ناهيك عن السيرة العملية لنبينا الأكرم محمد ﷺ وسلوكه الواضح للعيان إبّان قيادته للدولة الإسلامية في عصر الرسالة.

وليس في قولنا جديد حين نقول بأنّ تطور الإنسان والحرّية صنوان متلازمان، فلا تطور ولا رقي ولا سؤدد من دون الحرّية الفكرية والعملية، والعكس صحيح بطبيعة الحال، وهذا ما تؤكّده الآيات القرآنية الكريمة ومنها ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وهي من التعاليم الإلهية القاطعة التي تضع الفكر في مصافّ التقديس، من هنا كانت الحرّية الفكرية غاية الإسلام ووسيلته في آنٍ واحد وثمة آية قرآنية أخرى تؤكّد حرية الفكر بما لا يدع مجالاً للتشكيك حيث تقول الآية الكريمة: ﴿**فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾، فأيّ معنى عظيم تنطوي عليه هذه الآية الكريمة مع أنّ جوهر الدين والإسلام هو الإيمان القاطع بدين الله تعالى، ومع ذلك ثمّة هامش للحرية

متاح للإنسان مع أنّ ترك هذا الهامش بحدّ ذاته دليل على عظمة الدين الإسلامي وحتمية انتهاج تعاليمه ومبادئه الإنسانية المعطاء.

وفي هذا المجال يؤكّد سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - في الكتاب الموسوم بـ(من عبق المرجعية): لقد «التزم الإسلام بمبدأ لا إكراه في الدين في مختلف مجالات الحياة» وهكذا لا بُدّ من التأكيد على أنّ حرية الفكر تقع في الصميم مما يهدف إليه الإسلام، مع التعاضد التامّ بين الفكر والعمل، فالإسلام الذي يدعو إلى الحرّية الفكرية لا يكبّل الإنسان في مجالات الحياة كافة ولم يستخدم النبي ﷺ وهو قائد الدولة الإسلامية وسائل الإجبار والقسر مع الآخرين لدفعهم إلى الإيمان بالإسلام، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الصدد في الكتاب نفسه: «لم يقتل النبي ﷺ أحداً من المشركين بسبب عدم إسلامه، ولا أجبر أحداً على الإسلام، بل تركهم على دينهم» ويضيف سماحة المرجع الشيرازي قائلاً: «كان لرسول الله ﷺ الصديق المسيحي والجار اليهودي، دون أن يجبر أحداً منهم على الإسلام، مع أنه كان الحاكم الأعلى في الجزيرة العربية، وكان بيده السيف والمال والقوة الكافية».

وهذا ما يدلّ على نحو قاطع على المنهج التحرّري للإسلام والرؤية الثابتة لدور الحرّية في بناء المجتمعات السليمة، فلا إكراه في عموم مجالات الحياة الفكرية أو العملية شريطة ألا يؤدي ذلك إلى التجاوز على حقوق الآخرين، وهذا هو جوهر الحرّية

الصحيحة، فلا حرية قطّ مع الأفكار والأعمال التي تتجاوز على الآخرين وحرّياتهم ومعتقداتهم وأفكارهم وأعمالهم التي يؤمنون بها، ولا حرية مع الدعوات التي تحاول أن تحطّ من قيمة الإنسان أياً كان انتسابه وتوجّهاته في حالة كفّ أذاه عن عامة الناس، وبخلاف ذلك لا وجود للحرية بمعناها الأصحّ والأمثل، وهنا يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي في الكتاب نفسه على أنّ الإسلام: «يقول لك: اعمل ما تشاء، فلك حرية العمل شريطة ألا تضرّ غيرك، فإنّه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام». وهذا هو الشرط الأساس في ممارسة الإنسان لحرّياته سلوكاً وقولاً، وخلاف ذلك فإنّ أيّ تجاوز على الآخرين ليس من الحرّية بشيء.

بَيْدَ أنّ الإسلام لا يقف مكتوف الأيدي إزاء الظواهر والأفكار والسلوكيات الخاطئة، بمعنى لا بُدّ أن يكون هناك دور تنويري إرشادي لا أكثر، أي بعيداً عن الإكراه ولكن لا يصل هذا الدور بعدم التدخل إلى درجة الصمت التام بل لا بُدّ من عملية التوجيه الطوعية، وهنا يقول سماحة المرجع الشيرازي في الكتاب نفسه: «لا ضغط ولا جبر ولا إكراه ولا كبت للحرية في الإسلام، ولكن ثمة توجيهات وإرشادات تبيّن لك السلوك الأحسن، تقول: هذا صحيح وهذا مستحبّ وهذا مفضّل وهذا مكروه».

وتبقى لك الحرّية في الاختيار، ولا بُدّ للإنسان الذي يتعامل بروية وحكمة مع تعاليم من هذا النوع أن يعرف أين تكمن مصلحته طالما أنّ جميع النصائح والتوجيهات لا تأتي من باب الالتزام

والقسر بل الاختيار الحكيم لما يقع في صالح الإنسان أولاً وأخيراً، كما يؤكّد سـماحة المرجع الشيرازي على: أنّ «حرية الرأي في نظام الله وقانون الإسـلام أكثر تقديسـاً من الشـهادتين، فالإسلام يريد أن يجعل الناس أحراراً».

فأيّـة عظمـة بعد هـذا القـول وهذا الجوهـر الذي يمثـل رؤية الإسـلام للإنسان وتعامله مع رحلة الحياة التي تبقى الطريق الوحيد للوصول إلى خالق الكون والإنسـان ولكن وفقاً لخيارات الإنسـان نفسه وحريته التي يأمل الإسلام ألا يحدّها شيء سوى الفعل والفكر الذي يتجاوز على حقوق الآخرين.

الحرّية ركيزة في ارتقاء المجتمع

لم يكّف الفلاسفة والعلماء عن طرح أفكارهم التنويرية التي تقف إلى جانب الإنسان في سعيه الدؤوب لبناء المجتمع المثالي، وقد استمدّ معظم هؤلاء العلماء والمهتمون رؤاهم وأفكارهم من التعاليم الواردة في الأديان السماوية، إذ يشكل الإسلام المنبع الأعظم للأفكار الإنسانية التي تحثّ على التطور والتحديث والتفاعل المتبادل الذي يخدم البشرية ويضع خطواتها على الطريق السليم.

فالإنسان حين بدأ مشواره القاسي مع الحياة، لم يكن مشذّباً بعدُ من خطاياه ولا نوازعه المضمخة بنيّات الشر، وغالباً ما كانت تحكمه المصلحة الذاتية التي كانت تعميه عن رؤية مصالح غيره، فيلجأ إلى القوة والعنف لتحصين مصالحه وتعظيمها حتى لو تحقق ذلك على حساب الآخرين أفراداً أو أمماً، وهذا ما حدثنا به التأريخ البشري المتلاحق، حيث المعارك الطاحنة بين بني البشر لتأمين الحياة الأفضل على حساب الغير، وهو أمر بات مرفوضاً ومستهجناً في عالم اليوم.

حدث هذا بفضل الإسلام الذي دعا الناس أجمع من دون استثناء - وأوّلهم المسلمين - إلى احترام الآخرين وحرّياتهم، ومنح الجميع حرّية التفكير والعمل وحرّية طرح الرأي والرأي الآخر، بل وأثنى كثيراً على أهمية المشاورة قبل اتخاذ القرارات من لدن المعنيين وهم كبار أو قادة القوم لكي يتحقق شرط الحرّية الذي يؤدي بدوره إلى تحقيق أفضل النتائج في مجال البناء الأمثل للمجتمع.

في هذا الصدّد، يقول سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - في كتابه المتميّز (السياسة من واقع الإسلام): «الإنسان حرّ بنظر الإسلام في مزاولة كلّ أنواع الأعمال، بمختلف أشكالها، وأحوالها، في أيّ زمان ومكان ما لم يضرّ بالآخرين».

ولعلّنا نتفق على أنّ حرية العمل متأتية من حرية الرأي، وهكذا يستمدّ الإنسان حريته العملية من حريته الفكرية التي أتاحها له الإسلام شريطة ألا يتسبّب ذلك العمل بأذى للغير، وهو ما لا تقبله التعاليم الإسلامية مثلما يرفضه المنطق الإنساني القويم تماماً، ويضيف سماحة المرجع الشيرازي قائلاً في هذا المجال بكتابه نفسه: «إنّ الإسلام يعطي لكلّ فرد من المسلمين، بل وحتى لغير المسلمين من سائر البشر، كامل الحرّية في جميع المجالات المشروعة، ما دام لا يضرّ بحريّة غيره».

وهكذا نلاحظ تركيزاً كبيراً يوليه الإسلام لحرية الرأي

والعمل، والسبب كما هو واضح، أنّ أجواء الحرّية تسهم على نحوٍ كبير بخلق عناصر النجاح والتقدم والمعاصرة التي تتطلّبها حياتنا الراهنة، استناداً إلى قانون التجدّد الذي لا بُدّ للإنسان أن يؤمن به ويحسب حسابه ويسعى إلى تجديد أفكاره ورؤاه وأعماله، في ظلّ الشرط الذي اقترحه الإسلام والمنطق الإنساني معاً، متمثلاً بعدم الإضرار بمصالح الآخرين، فليس من العدل بشيءٍ أن تتسبّب حريتك في الأذى لغيرك مهما كان حدود الضرر؛ لأنّ الأهمّ في التقدم والتطور والحرّية نفسها أن يتحقق الوئام والانسجام بين الجميع في ظلّ نظام حياتي يضع توافر المواصفات الإنسانية في المقدّمة من أهدافه.

ولكن يبقى الإسلام حريصاً على حرّية الآخرين، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الصدّد في كتابه نفسه: «أول ما يبدأ الإسلام بتحرير الناس فيه: الفكر، واختيار الدين، فإنّ الإسلام لا يجبر الناس على دين معيّن أبداً، ولو كانوا في بلاد الإسلام وتحت رعايته وحمايته». والأهمّ عند الإسلام أن يكون الإنسان سعيداً وناجحاً في حياته، بل هدف الإسلام أن يتحقّق الخير لعموم الناس، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا المجال: «إنّ الإسلام جاء لإسعاد البشر حتى الذي لا يؤمن بالإسلام يريد له الخير ويحبّ له النجاة، إنّها من أبعاد الحرّية في الإسلام».

والهدف الأهمّ في المسعى الإسلامي أن تُشاع الحرّية من دون إلحاق الضرر بالآخرين، عند ذاك سوف تُشاع حرية العمل

والإنتـاج المتنوع في ظلّ منظومة سـلوك عصري متـوازن قائم على مراعاة حقوق الآخرين وآرائهم ومشاعرهم، مما يؤدي بالنتيجة إلى تحقيق المجتمع العصري الناجح.

نعمة الحرّية وكيفية اغتنامها

من بداهة القول، أن نتفق على أن الحرّية هي الهدف الأول، الذي يسعى الإنسان لتحقيقه، فرداً كان أو جماعات، من أجل ضمان الاستقلالية التامة في الفكر والسلوك، حيث الحرّية، هي الحيّز الأوسع والأنسب، لتحريك الطاقات المبدعة الكامنة في أعماق الذات، ومن ثم توظيفها على النحو الأفضل، لخدمة الإنسان والجماعة، في الوقت عينه.

وطالما أنّ الإنسان أتى هذا العالم وهو يحمل هوية التحرّر في يده وقلبه، فإنّ أية محاولات، تحاول أن تسلب منه هذه الهوية، ستكون أشبه بالتجاوز على حقوقه، وتُعدّ محاولة آثمة لترويضه وتدجينه، إلا فيما يتعلق بامتثال الإنسان لتعاليم الدين الواضحة، والأعراف التي يتفق عليها المحيط البشري، الذي يتحرك فيه الإنسان.

ولهذا يبقى الإنسان متعطّشاً لحريته؛ لكونه مجبولاً عليها منذ الولادة، ولهذا أيضاً، يقارع بقوة كلّ الأساليب والسلطات التي تحاول أن تصادر هذه الحرّية أو تحدّ منها بطريقة أو أخرى، حتى

لـو كان العنـف هو الأداة التي تحاول أن تسـلب من الإنسـان هويته وحرّيتـه، فالإنسـان في الغالـب وفقاً لسـجاياه التي جُبـل عليها، لا يخشـى العنف ولا يمتثل لقسـوته، مع أنه مظهر من مظاهر الاعتداء الصارخـة على كرامة الإنسـان، إذ يقول سـماحة المرجع الديني آية اللـه العظمى السـيد صـادق الحسـيني الشـيرازي - دام ظلـه - في الكتـاب القيّم الذي يحمل عنوان (مـن عبق المرجعية): «العنف هو استخدام القوة المعتدية».

وهكـذا توضّـح لنـا هـذه الجملـة المركّـزة طبيعـة العنـف، والأسـباب التـي تقـف وراءه، حيـث السّـعي الـدؤوب للسـلطات المسـتبدّة لمصـادرة حرية النـاس، الأمر الـذي يؤدي إلـى التصادم بيـن إرادتين، إرادة الحرّية وإرادة الطغيان، ومع ذلك يوجّه الإسـلام بضـرورة تجنّـب العنف، واللجـوء إلى الأسـاليب التي تمنـع إراقة الدماء وتسـعى في الوقت ذاته إلى حفظ الحريات، إذ يؤكّد سـماحة المرجـع الشـيرازي في هذا الصّـدد على أنّ: «أسـلوب الحوار أولاً والمظاهرات السلمية ثانياً، هي الأجدى والأحمد عاقبة، في السعي إلى الإصلاح والتغيير، وفي التاريخ البعيد، كما في التاريخ القريب، نماذج كثيرة تؤيّد ذلك».

ولكن تبقى حرية الإنسان هي الأكثر تقديساً في نظر الإسلام، فـلا شـيء يماثـل الحرّيـة الإنسـانية فـي دفع الإنسـان نحـو التطور والإبـداع، ولهذا تؤكّد التعاليم الإسـلامية أهمية الحفاظ على حرّية الإنسـان من المسـاس أو التجاوز؛ لكونها تعمـل بالضدّ من الطبيعة

والفطرة التي خُلق وفقها الإنسان، حيث النزوع الفطري نحو الحرّية، ولهذا السبب، يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي في الكتاب نفسه أن: «حرّية الرأي في نظام الإسلام، أكثر تقديساً حتى من الشهادتين، فالإسلام يريد أن يجعل الناس أحراراً».

ولهذا السبب أيضاً، واستناداً إلى فهم الطبيعة الإنسانية النازعة إلى التحرّر والإبداع على نحو دائم، أكّد الإسلام الأهمية القصوى لتجنّب مصادرة آراء الناس، أو إجبارهم بالقسر والقوة على اتخاذ موقف ما أو انتهاج منهج ما، فقط هناك الإقناع وسيلة للإسلام لهداية الناس، أما الضغط عليهم والتضييق على حرّياتهم، وقسرهم على شيء ما أو هدف لا يقتنعون به، فهو سلوك مرفوض تماماً، لهذا يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي في الكتاب نفسه أنّ: «الحرّيات الموجودة في الإسلام لا نظير لها في التاريخ».

ويؤكّد سماحته أيضاً قائلاً في هذا الصّدد: إنّ «الحرّية التي يمنحها الإسلام في مختلف المجالات، ليس لها نظير، ولا شيء يقرب منها في تاريخ العالم، حتى في هذا اليوم المسمّى بعصر الحرّيات».

وطالما أنّ السلطات السياسية، لا سيما في الدول العربية والإسلامية التي تتخذ من الدين الإسلامي ديناً رسمياً لها، وتدّعي الانتساب إليه شكلاً لا تطبيقاً، طالما أنّها تغفل أهمية حرّية الإنسان والشعب عموماً، فإنّها لا يمكن أن تصمد أمام تعطّش شعوبها، واندفاعها المتجدّد نحو الحرّية، وخير الأمثلة أمامنا وأكثرها حضوراً

وقرباً منّا، ما حدث في تونس، حيث الانتفاضة الشعبية التي أجبرت الحاكم على الفرار، وأطاحت بنظامه التسلّطي القمعي، وهو ما تجدّد في مصر مع نظامها الذي أغفل حرّيات الناس، وتجاوز على حقوقهم، من خلال استشراء الفساد المالي والسياسي والمجتمعي أيضاً، الأمر الذي دفع بالجماهير إلى الانتفاض والمطالبة بحرّياتها.

وهكذا تبقى الحرّية مطلباً أزلياً للإنسان، ينبغي له أن يغتنمها في تطوير حياته وتحسينها، وما على الحكومات سوى أن تفهم، بأنّ بقاءها مقترن بالمحافظة على حرّيات الشعوب، وزوالها مرتبط بالتجاوز على حرّياتهم، فالحرّية كما يقول سماحة المرجع الشيرازي: «نعمة إلهية عظمى ينبغي اغتنامها على أحسن وجه».

الحرّية في الإسلام وطغاة العصر الراهن

يُفسّر لنا سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - مفردة ومعنى الطاغوت، في كتابه القيّم الموسوم بـ(الحرّية في الإسلام) موضّحاً بأنّ «الطاغوت من الطغيان، وهو التجاوز عن الحدّ»، والحدّ هنا هو حدّ الله تعالى، الذي تتفرّع منه جميع الحدود المتعارف عليها، في أحكام الشرع، وفي السنن والأعراف والأخلاق المتفق عليها عموماً.

ولا ينحصر التحجيم وكبت الحرّيات، على أفعال الناس وأعمالهم المختلفة، بل هناك طغيان فكري، يرفض الفكر الواعي المتحرّر ويقارعه؛ لكونه يقف إلى جانب السّلطان، ويؤازره في انتهاكاته ضدّ الشعب، متجاوزاً بذلك حدود الله تعالى، يقول سماحة المرجع الشيرازي في كتابه المذكور بهذا الخصوص: «يستعمل الطغيان في الفكر أيضاً، ويُراد به عادةً المناهج المنحرفة عن سبيل الله تعالى، ومن هنا تُطلق كلمة الطاغوت على مَن كان في قمّة الفكر المنحرف».

جرائم الطغاة

فالحاكم الطاغية هو كلّ من حاول التجاوز على الحدود المتعارفة، والمتفق عليها، ضمن الضوابط الدينية والعرفية والأخلاقية، أما بخصوص السياسة، فهناك حريات وحقوق وواجبات، تدركها الدساتير لتنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، شريطة أن تحظى بالقبول الشعبي الواعي، وما عداها فهي دساتير شكلية، يدبجها كتبَة الحكام الطّغاة، كغطاء لجرائمهم البشعة ضدّ شعوبهم.

والتجارب التي لا تزال ساخنة، تؤكّد لنا أنّ الحكام الطغاة لا يعترفون بالدستور، ولا بالحرّيات الفردية أو الجماعية، ودائماً يعتقدون بأنّهم على صواب، حتى لو أدّت قراراتهم الفردية إلى الخراب الشامل لحياة الشعوب، هذا ما قام به طغاة الغرب والشرق، فلم تخلُ جهات الأرض منهم على مرّ التأريخ، فهذا «لينين – رئيس جمهوريات الاتحاد السوفيتي السّابق وأمين سرّ الحزب الشيوعي السوفيتي – يقتل ويشرّد وحده في عصر الحرّية والتقدّم خمسة ملايين إنسان من أجل تطبيق مادّة قانونية واحدة من قانون المزارع الجماعية في الاتّحاد السوفياتي السابق» كما يذكر لنا سماحة المرجع الشيرازي في كتابه نفسه.

لا إكراه في الدين

من ناحية أخرى، ليس هناك حالة إكراه في الدين الإسلامي،

ولا ينبغـي أن تكـون، إذ يذكـر لنـا سـماحة المرجع الشـيرازي، في كتابه (الحرّية في الإسـلام) قائلاً بهذا الصّدد: «من أصول الإسـلام المسـلّمة والمؤكّدة مسـألة حرّية اختيار الدين، قال تعالـى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ». أما الحال مع طغاة العصر فهو يختلف تماماً، هناك مسار واحـد يفرضونـه على الشـعوب، وهو أن تسـير الناس فـي طريقهم ومسـارهم، مـن دون رأي أو صـوت معارض، وإلا فـإنّ القصاص، عقوبـة أرواحهم وأملاكهـم وأبنائهم، وبهـذا تنتهـك الحرّيات أيّما انتهاك، وتصادر الآراء أيّما مصادرة، بينما في الإسـلام والحكومات الإسـلامية التي خلّدها التأريخ في حلقاتها المشرقة، لا تجاوز على حرّية الفرد، يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي على هذا الجانب قائلاً: «ليكن معلوماً – قبل كلّ شـيء – أنّ الإسلام وحده هو دين الحرّية. فحتّى المدارس والمبادئ الأخرى التي ظهرت منذ قرون وما زالت ترفع شعار الحرّية لا واقع للحرية فيها سوى الاسم، أمّا الإسلام فهو دين الحريات مبدأً وشعاراً، وقولاً وعملاً».

أنت حرٌّ في الإسلام

لهـذا لا يعتـرف الإسـلام، بالحـكام الذيـن يتجـاوزون على الحرّيـات، ويضربـون حولها الأسـوار الشـاهقة، إذ يرى الإسـلام، أنّ الوضـع الطبيعي لحركة الناس، والأشـياء، والحياة برمّتها، ينبغي أن تحكمـه الحرّية، شـريطة عدم الإضـرار بالغير، يذكر لنا سـماحة المرجـع الشـيرازي، حـول هـذا الموضوع فـي كتابه نفسـه: «يقول الإسلام: اعمل ما تشاء، فلك حرّية العمل شريطة أن لا تضرّ غيرك».

وهكـذا يمكن أن تنتظم الحياة، وفقاً لهذا القانون الإسـلامي، لتصبـح حاضنة ملائمة للفرد والجماعة، بل لشـعوب العالم أجمع، لتعيـش في أجواء الحرّيـة، التي لا يحكمها حاكم أو طغيان، سـوى شـرط لا يرفضه عاقـل، وهو ألا تضرّ غيرك عندمـا تمارس حرياتك المتعارف والمتفق عليها.

بـل ينبئنـا التأريـخ، أنّ النبـي الأكـرم ﷺ وهو قائـد الدولة الإسـلامية فـي نشـأتها الأولـى، قـدّم أنموذجـاً للقائـد المتحـرّر والمتسـامح مع الجميع، حتـى مع أعدائه الذين ظلمـوه، وتجاوزوا عليـه وعلـى ذويـه وأصحابـه الأطهـار، إذ نقرأ فـي كتـاب المرجع الشـيرازي بهذا الصّدد: «هكذا روى التاريخ عن سـلوك نبينا ﷺ: يحاربـه قومه مع ما يعرفونـه من صدقه وأمانته ونبلـه وكرم أخلاقه، بمختلـف أنـواع الحـروب القاسـية ويطردونـه من موطنه ومسـقط رأسه، ثم يتركهم أحراراً وما يختارون من دين وطريقة حياة؟».

نموذج الحاكم الإسلامي

ويتكـرّر منهـج التحرّر، في حكومة الإمـام عليّ بن أبي طالب عليه السلام فنجد النموذج الأمثل للحاكم الذي يرعى شـعبه، ويساعدهم علـى معرفـة حقوقهـم والعمل بحرّياتهـم، بعيداً عن القسـر والظلم والإجبـار، تحت ضغـط المصالـح السـلطوية، التي غالبـاً ما تعمي بصيرة الطغاة، بل التسـامح والنصح والتوجيه يشمل حتى المعادين للحكومـة الإسـلامية، وهنا تتضـح بجلاء تـام أجواء الحرّيـة، التي كانت تعمّ العلاقات المتبادلة بين الحكومة والشعب أو الأفراد، فهم

أحرار في آرائهم تماماً، ما لم يلجأوا إلى القوة والسيف.

يذكر لنا سماحة المرجع الشيرازي، قائلاً في هذا المجال بكتابه المذكور نفسه: «ها هو الإمام أمير المؤمنين -سلام الله عليه- قد كان مبتلىً بأشخاص ذوي نفسيات وضيعة تردّ عليه وتقطع كلامه وتجادله بالباطل بل حتى تتطاول عليه، وهو مع ذلك لا يأمر بقتلهم وسجنهم ونحو ذلك، وهو الحاكم الأعلى الذي بايعته الأمّة قاطبة ناهيك عن كونه مُنَصّباً من قِبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبأمرٍ من العليّ القدير، بل كان يجيبهم ويترك لهم حريّة العقيدة ما لم يتآمروا ويلجأوا إلى استعمال القوّة والسيف».

الحق وطغاة العصر

على خلاف ذلك، ينحرف الطغاة عن جادة الحقّ، وهم يعرفونه حقّ المعرفة، لكنهم يتمسّكون بالباطل، تحت ضغط أطماعهم، ومصالحهم ونفوسهم المصابة بالضعف والهوان، وهم يعطون بذلك صورة واضحة عن قمع الحرّيات ومصادرة الآراء، حماية لعروشهم التي ستهتزّ وتسقط عاجلاً أم آجلاً، كما تخبرنا بذلك أحداث التأريخ والوقائع الحاضرة أيضاً.

ومع ذلك ينسى طغاة العصر أو يتناسون، مصيرهم الذي ينتظرهم، فهم مهدّدون بالسقوط في الدنيا، ومحاسَبون على جرائمهم في الآخرة، لذا يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الخصوص: «إنّ من عرف الحقّ ولم يترك الباطل فإنّ مصيره يوم

القيامـة إلـى جهنّـم وبئس المصيـر، أمّا فـي الدنيا فـ﴿**لاَ إِكْـرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ ليتـمّ الامتحان ويُعرف الطالح مـن الصالح، ويُميّز الخبيث من الطيّب».

عالم اليوم... عالم الحرّية والانفتاح والتنوّع

يتغابى الحكّام القمعيون دائماً، عندما يتعلّق الأمر بإطلاق الحرّيات لشعوبهم؛ لأنّ هؤلاء الحكّام، بسبب استبدادهم وتفضيلهم لمصالحهم، يشعرون أنّ الحرّية تشكل خطراً عليهم وعلى عروشهم، بل وعلى أهدافهم كافّة، لهذا يكون القمع وتكميم الأفواه وإقصاء المعارضين وتهميشهم وعزلهم عن ساحة الفعل والتأثير، من أهمّ الأساليب التي يحاربون بها شعوبهم.

وطالما أنّ العالم، يسير بخطوات حثيثة ومتسارعة، نحو الانفتاح، بسبب وسائل الاتصال الحديثة، والاحتكاك الدائم بالتجارب الديمقراطية الناجحة، فإنّ الشعور بالحاجة إلى التحرّر يتزايد لدى الشعوب المحكومة بالحديد والنار، ولهذا لم يَعُدْ هذا العصر مناسباً للدكتاتوريات القامعة لشعوبها.

نعم، كلّ الدلائل والوقائع السّاخنة والمتسارعة تشير إلى انتهاء عصر الدكتاتوريات، وتواصل سقوط العروش السلطوية، لا سيّما في منطقة الشرق الأوسط حيث بدأت الأنظمة القمعية تتهاوى تباعاً بفعل الانتفاضات الشبابية الشعبية التي اشتعل أوارها وبدأ

يتناقل كالنار في الهشيم من دولة إلى أخرى، وذلك بسبب عصر الانفتاح. يقول سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي، في كلمات توجيهية سديدة، بمناسبة ما يجري من إحداث متسارعة في الشرق الأوسط: «إنّ عالم اليوم هو عالم الحرّية والانفتاح، وإنّ ممارسات الاضطهاد والكبت من قبل الحكّام تجاه شعوبهم لا طائل لهم منها سوى الفضيحة والندم».

وهذا ما يتحقّق فعلاً على أرض الواقع السياسي، حيث تساقط الحكّام الانفراديون من عروشهم واحداً تلو الآخر بسبب سياساتهم التي تحجر على شعوبهم وتحرمهم من أبسط الحرّيات في عالم سِمَتُه الانفتاح والتحرّر، والمشكلة أنّ الحكّام الذين تساقطوا ومن سيأتيه الدور لاحقاً لا يريدون فهم المعادلة الجديدة القائمة على الانفتاح والحرّية، ولم يتأمّلوا بتجارب الماضي القريب ولا البعيد لكي يستفيدوا منها ويصححوا مساراتهم بما يحفظ حقوق الشعوب والسلطة معاً، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد: «لو أنّ الحكّام اليوم يتأمّلون في تاريخ من مضى من الحكّام أمثالهم لأعادوا النظر في تصرّفاتهم وأفعالهم مع شعوبهم، ولما أقدموا على حرق تاريخهم بأيديهم».

نعم، إنّ هؤلاء الحكّام يحرقون تأريخهم وحاضرهم ومستقبلهم بأيديهم بسبب سياساتهم الرعناء تجاه شعوبهم، ويبدو أنّهم لم يفهموا حتى هذه اللحظة ولا يريدون أن يفهموا بأنّ سياسة الاستبداد هي التي تتسبّب بإسقاطهم من عروشهم، كما يؤكّد

سماحة المرجع الشيرازي ذلك بقوله: «إنّ الحكومة التي تبتني أساسها على الاستبداد وهضم حقوق الناس المشروعة هي حكومة زائلة وفانية لا محالة».

ويؤكّد سماحته في هذا المجال أيضاً: «إنّ استعانة الحكومات بالقمع والسلاح في تعاملها مع الناس الأبرياء والعزّل ينبئ عن ضعف تلك الحكومات، وستكون العاقبة للمستضعفين». ولهذا يقدّم سماحة المرجع الشيرازي نصائحه لهؤلاء الحكّام، ويؤكّد مراراً أنّ الظلم والقمع والاستبداد هو العدوّ الأول للحكّام، كما يرد في إحدى توجيهاته السديدة: «على الحكّام أن يكفّوا عن ظلم الأبرياء، وأن لا يلطّخوا أيديهم بدماء المستضعفين؛ لأنّهم سوف لا يجنون من هذه الأفعال إلاّ الغضب والسّخط من الله تعالى».

ويؤكّد سماحته أنّ الحوار هو الأسلوب المناسب لتحقيق التوازن بين المطالب المشروعة للشعب وبين متطلبات السلطة الحاكمة، وكذلك المظاهرات السلمية التي تعتبر الأجدى من غيرها، كما يؤكّد سماحته قائلاً بهذا الخصوص: «إنّ أسلوب الحوار أولاً والمظاهرات السلمية ثانياً، هي الأجدى والأحمد عاقبة، في السّعي إلى الإصلاح، وفي التاريخ البعيد، كما في التاريخ القريب، نماذج كثيرة تؤيّد ذلك».

لذا لا بُدّ أن تفهم الحكومات بأنّ عالم اليوم ليس هو عالم الأمس، وأنّ سِمَةَ الانفتاح لم تَعدْ تسمح للحاكم المستبدّ بالقدرة على مواصلة الظلم والقمع وعزل الشعب، بل لا بُدّ من توفير

الحرّيات المطلوبة للشعوب، وإذا أرادت الحكومة أن تستمرّ في حكمها، فعليها أن تحمي الحرّيات بنفسها وتطورها وتنميها؛ لكونها الحاضنة الصحية التي تساعد على حفظ العلاقة المتوازنة بين الشعب وحكومته، ولهذا السبب يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي في توجيهاته على: «أنّ عالم اليوم وجيل اليوم يبحث عن الحقيقة والسعادة، وهذا لا يتأتى إلاّ في ظلّ الحرّية بما في الكلمة من معنى، وفي إطار العدل بما للكلمة من شمول، والممارسات الظالمة للحكّام ليست إلاّ سدّاً أمام طموح الشعوب في نيل الحرّية المشروعة التي تنتهي إلى انتصار المظلوم على الظالم». وعلى الحكّام والحكومات المستبدّة أن تفهم هذا الدرس بصورة صحيحة ودقيقة لتجنّب نفسها من السقوط الحتمي.

نهاية عصر القمع وتنامي عصر التحرّر

في جملة من التوجيهات والإرشادات التي وجّهها مؤخّراً سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي - دام ظلّه - حول الحرّية، أكّد فيها سماحته على صفات الحاكم في الإسلام، وعاقبة الذين يحكمون الناس بالقمع والاضطهاد والكبت والظلم ويصادرون الحقوق المشروعة وغيرها. وتطرّق فيها سماحته إلى أهمية الحرّية في عالم اليوم، لبناء المجتمع المتوازن والقادر على مواكبة ما يستجدّ في ساحات العلم والمعرفة، وصنع الحياة الأفضل، لا سيّما ما يتعلّق بحقوق الشعوب وضرورة مراعاتها من لدن الحكّام.

عالم الحرّية والانفتاح

يقول سماحة المرجع الشيرازي في جانب من توجيهاته المهمة: «إنّ عالم اليوم هو عالم الحرّية والانفتاح، وإنّ ممارسات الاضطهاد والكبت من قبل الحكّام تجاه شعوبهم لا طائل لهم منها سوى الفضيحة والندم». وهو ما أفصح عنه واقع الأحداث

الأخيرة التي انتهت بإسقاط بعض العروش، التي بنت نفسها على دماء وأرواح وحقوق الشعوب، فمع تقدّم الوعي واتّساع وسائل الاتصال، والانفتاح التامّ بين أمم وشعوب العالم، الأمر الذي يتيح مجالاً أوسع للحريات والمسارات الصحيحة، لذا أصبح من العسير جدًّا على الدكتاتوريات، أن تجد لها مكاناً في عالم اليوم، حتى لو بذلت قصارى جهدها وأساليبها القمعية المعروفة، وهذا ما يؤكّد نهاية عصر القمع، يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد: «إنّ عالم اليوم وجيل اليوم يبحث عن الحقيقة والسعادة، وهذا لا يتأتى إلاّ في ظلّ الحرّية بما في هذه الكلمة من معنى، وفي إطار العدل بما للكلمة من شمول».

إنّ نتائج الربيع العربي التي تمخّضت عن الانتفاضات والاحتجاجات الكبيرة، أعطت درساً فعليًّا للقادة المتجبّرين، لذا كان على الباقين منهم أن يتعظوا ويفهموا الدرس جيّداً، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي: «لو أنّ الحكّام اليوم يتأمّلون في تاريخ من مضى من الحكّام أمثالهم لأعادوا النظر في تصرّفاتهم وأفعالهم مع شعوبهم، ولما أقدموا على حرق تاريخهم بأيديهم». وهذا ما يؤكّد فشل أساليب القمع بكلّ أنواعها وصورها على النجاح في إطفاء جذوة الوعي لدى الغالبية العظمى من الناس حتى بسطائهم، لذلك بات القمع وسيلة للتعجيل بسقوط الأنظمة المستبدّة وليس حامياً لها، لذلك يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي في توجيهاته على: «إنّ الحكومة التي تبتني أساسها على الاستبداد وهضم حقوق الناس

المشروعة هي حكومة زائلة وفانية لا محالة».

معادلة القمع وضعف الحكومة

الحكومات القويّة تستمدّ قوتها وثباتها من درجة مشروعيتها المستمدة من رضا الشعب عنها، ومجيئها عبر صناديق الانتخاب، وليس عن طريق القوة الغاشمة، فالحكومات التي تنتهج العنف والقمع سبيلاً لتثبيت أركانها، تؤكّد ضعفها بهذا الأسلوب وقرب زوالها، وهو أمر تؤكّده التجارب التأريخية والوقائع الراهنة أيضاً، يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصّدد: «إنّ استعانة الحكومات بالقمع والسلاح في تعاملها مع الناس الأبرياء والعزّل ينبئ عن ضعف تلك الحكومات، وستكون العاقبة للمستضعفين». لذا ليس هناك سبل أخرى أمام الحكام وحكوماتهم، سوى انتهاج مبدأ الشورى والانتخاب وفق الضوابط المعروفة، فالوصول إلى كرسي الحكم ينبغي أن يكون باتفاق تامّ بين أبناء الشعب على حكومته، ويجب أن يتمّ هذا في أجواء حرّية واضحة، أمّا المطلوب من الحكّام فهو أن يفهموا بأنّ عصر القمع قد ولّى، وأنّ الحرّية هي وحدها التي تتيح لهم سبل البقاء في الساحة السياسية وفق مبدأ التنافس الصحيح مع الآخرين لقيادة الشعوب، لذا يحذّر سماحة المرجع الشيرازي الحكّام قائلاً: «على الحكّام أن يكفّوا عن ظلم الأبرياء، وأن لا يلطّخوا أيديهم بدماء المستضعفين؛ لأنّهم سوف لا يجنون من هذه الأفعال إلاّ الغضب والسخط من الله تعالى، فالله تعالى قد خاطب الظالمين بخطاب شديد، حيث قال عزّ من قائل:

﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾».

الإسلام وحرّية الرأي

لقد أكّدت مبادئ وتعاليم الإسلام على أهمية الاستشارة في إدارة شؤون الناس، وهذا دليل قاطع على المنظور الإسلامي الراسخ لأهمية الحرّية، وجعلها من الأُسس القويمة لمواصلة الحياة وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لذا يؤكّد سماحة المرجع الشيرازي قائلاً: «إنّ حرّية الرأي في نظام الإسلام، من الأُسس القويمة، فالإسلام يجعل الناس أحراراً».

نعم، إنّ الإسلام يُحرّر الإنسان بدءاً من الذات عبوراً إلى الخارج، ويطالب الإسلام بانتهاج الحرّية كأسلوب حياة تساعد الناس على اختيار ما يصلح لقيادتهم، بالإضافة إلى اختيار السّبل السليمة لحياتهم، مع حضور مسؤولية النخب المعنية بزيادة الوعي الجمعي لعموم الناس ومساعدتهم على معرفة ما يصلح لهم في تسيير حياتهم، لذلك فإنّ الحرّية في المنظور الإسلامي تختلف عن سواها من الحرّيات، كما يؤكّد ذلك سماحة المرجع الشيرازي حيث يقول: «إنّ الحرّية التي يمنحها الإسلام في مختلف المجالات، ليس لها نظير، ولا شيء يقرب منها في تاريخ العالم، حتى في هذا اليوم المسمّى بعصر الحريّات، والإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حكومته كان يمنح للناس الحرّية في المظاهرات ضدّ شخصه بدون قيود، وكان يلبّي مطالبهم».

إزاحة الطغاة... ديناميكية الحياة وعالم الحرّية المرتقّب

يؤكّد سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي – دام ظلّه – على التجدّد الديناميكي المتواصل لعالم اليوم، وينبّه النّخب كافّة، على أهمية ملاحظة ما يحدث الآن، في إطار النزعة التحديثية لشعوب الشرق الأوسط، ويذكّر الحكّام بأنّ العصر الراهن، هو عصر الحرّية، وعصر (حوار الحضارات وليس تصادمها) وهو هدف جماهيري، ترسمه وتخطّط له عقول النّخب الناجحة، وتأخذ القيادات الذكية المتوقّدة على عاتقها، تنفيذ البرمجة التحديثية على الأرض.

وهو ما يجري من وقائع يلحظها المعنيّون وغيرهم، حيث تتجدّد الانتفاضات في معظم دول الشرق الأوسط، كما نلاحظ ذلك فيما يحدث الآن في البحرين، حيث تصدّت مجموعة من المنظمات المعارضة، والقيادات الشبابية وغيرها لمهمّة التغيير والعصرنة.

ونظراً للمرحلة المحورية الحرجة التي تمرّ بها شعوب الشرق الأوسط، حيث تتطلّع الجماهير إلى كسح وإزالة أنظمتها

السياسية العجفاء، والإتيان بأنظمة معاصرة، شكلها وجوهرها التحديث والتطور، فإنّ سماحة المرجع الشيرازي يطلّ على الجميع بأفكاره ورؤاه السديدة، ويضعها بين أيدي المعنيّين من شباب الأمة المتحمّس، والناهض لتجديد الحياة برمّتها، وقد وجّه سماحته ببعض الخطوات الفكرية والعملية التي تضع أمام الحكّام مرآة الحقيقة، لتكشف أخطاءهم وتُظهر لهم مدى الوهم العميق الذي يتلبّس عقولهم وبصائرهم، فهم ما يزالون متمسّكين بعنصر القمع كأسلوب عقيم لحماية عروشهم، بينما قانون الحياة وديناميةالحركة المتسارعة للشعوب تنبئ بغير ذلك تماماً، إنّها تقول للحكّام السلطويين كفى! لقد انتهت اللعبة، وعليكم أن تعرفوا بأنكم وصلتم الى آخر المطاف، وأنّ سيول التجديد الهادرة تتدفّق نحو عروشكم لتقتلعها من جذورها.

وهو ما يحدث الآن على الأرض فعلاً، ودائماً يكون الحكّام المتغطرسون هم السبب، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الصّدد في توجيهاته الأخيرة التي جاءت منسجمة ومتوافقة مع الانتفاضات الشعبية المستعرة: «لو أنّ الحكّام اليوم يتأمّلون في تأريخ من مضى من الحكّام أمثالهم، لأعادوا النظر في تصرّفاتهم وأفعالهم مع شعوبهم، ولما أقدموا على حرق تاريخهم بأيديهم». ويحذّر سماحته من أنّ «الحكومة التي تبتني أساسها على الاستبداد وهضم حقوق الناس المشروعة هي حكومة زائلة وفانية لا محالة».

إنّ قانون التطور الطبيعي يرفض التقوقع، ويتطلّع إلى التغيير،

فيما يستميت الحكّام، كي يجعلوا من الرتابة والنمطية والسكونية، قانوناً للحياة، حتى يطمئنّوا على سلامة عروشهم، وهذا التضارب بين النزوع الطبيعي للتجديد، وبين تشبّث الطغاة بالقديم السّاكن، هو الذي يحرك بؤرة الصّراع بين الطرفين (الحاكم والجماهير) لهذا يحاول الحكام كنز الأموال، من خلال الفساد والاستئثار بالثروات على حساب الشعب، من دون أن يقتنعوا بأنّ قانون الحياة الصحيح، سيطيح بآمالهم بالبقاء أكثر في سدّة الحكم، فيؤكّد سماحة المرجع الشيرازي قائلاً في توجيهاته: «إنّ الفساد الإداري والاستئثار بأموال الناس وإيداعها في حسابات خاصّة في البنوك الأجنبية أدى إلى المزيد من الحرمان والبطالة والتخلّف والمرض والجهل وسوء الخدمات مما عمّق جراح المظلومين والمسحوقين من أبناء هذه الشعوب وجرّ عليها أنواع المآسي والمحن». الأمر الذي دفع الجماهير، باتجاه معاضدة قانون التغيير الوطني، الذي يتسارع من خلال الاحتجاج، والانتفاض على السكون، والركون إلى النمطية، لهذا يقول سماحة المرجع الشيرازي: «إنّ هذه الاحتجاجات العارمة إنّما تنمّ عن روحٍ وطنية وإصلاحية وتدعو للتغيير الجذري، وهذا حقٌّ إنسانيٌّ مشروعٌ».

بَيْدَ أنّ الحكّام الطّغاة لا يتواءم ذلك مع أهدافهم، ومصالحهم المحصورة بحماية العرش، مهما كانت الدواعي والأسباب، الأمر الذي يدفع بهم إلى مواصلة القمع، ومضاعفة التسلّط، والتجاوز على الشعب، وصولاً إلى القتل الجماعي، كما حدث في البحرين

مثالاً، لكن هذا الأسلوب، بدلاً من أن يحدّ من حركة الحياة إلى الأمام، فإنه يعجّل بتقادمها وإزالة العروش الخاوية، كما يؤكّد ذلك سماحة المرجع الشيرازي مذكّراً الطّغاة: «بأنّ استخدام وسائل العنف وإطلاق الرصاص الحيّ على المحتجّين الأبرياء موقف غير مقبول ويزيد الجماهير تصميماً وإصراراً للمضيّ في طريق التغيير، وإنّ حوادث القتل التي ارتكبت خلال هذه الاحتجاجات مشمولة بقوله تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾(١)».

ولكن في آخر المطاف، سيستمرّ المسار الحركيّ الديناميّ التقدميّ لطبيعة الحياة، ويعلو الحقّ، ويسقط المتجبّرون، والسبب واضح وبسيط، يؤشّره سماحة المرجع الشيرازي حين يقول: «إنّ عالم اليوم وجيل اليوم يبحث عن الحقيقة والسعادة، وهذا لا يتأتّى إلاّ في ظلّ الحرّية بما في الكلمة من معنى، وفي إطار العدل بما للكلمة من شمول، والممارسات الظالمة للحكّام ليست إلاّ سدّاً أمام طموح الشّعوب في نيل الحرّية المشروعة التي تنتهي إلى انتصار المظلوم على الظالم».

(١) المائدة: ٣٢.

المحتويات

كلمة الناشر ٧
مقدمة مؤسّسة النبأ للثقافة والإعلام ٩
جوهر الحرّية في تعاليم الإسلام ١٥
الحرّية من منظور إسلامي ٢٧
الإسلام وجوهر الحرّية المعاصرة ٣٣
الحرّية الفكرية والعملية في المنظور الإسلامي ٣٧
الحرّية ركيزة في ارتقاء المجتمع ٤١
نعمة الحرّية وكيفية اغتنامها ٤٥
الحرّية في الإسلام وطغاة العصر الراهن ٤٩
عالم اليوم... عالم الحرّية والانفتاح والتنوّع ٥٥
نهاية عصر القمع وتنامي عصر التحرّر ٥٩
إزاحة الطغاة... ديناميكية الحياة وعالم الحرّية المرتقّب ٦٣
المحتويات ٦٧